

أودعني الله نفساً مُحِبَّةً إلا أن ظروف الحياة غالباً ما تدفع للرفض والتشنج. مرّت فصول ملاحم الدوام يقطع درب جلجلة بين طرفي الرصافة والكرخ، دربٌ تزكمك فيه رائحة الموت، يفاجئك نابض على طرف أصابعك وفي وجيب قلبك، دربٌ انخفاقات طوابير مركبات عبر نقاط التفتيش مشكلةً هدفاً سهلاً سائعاً لمحترفي التفخيخ بالعبوات والسيارات والأحزمة الناسفة، فتدور عيناك وأنت محاصر فيمن حولك متهمة الجميع، قد تكون هذه السيارة عن يميني أو تلك أو هذا العابر بدراجة نارية أو ذاك الماشي، الكل مزحومٌ في الكل، كتلة واحدة، حركة طائشة تكفي لإشعال الفتيل فينصهر الجميع، وقلبك لا يفتر عن ترديد آيات النجاة مسلماً أمرك الله، وتواسي نفسك مخففاً عنها: على أية حال ستكون موتة سريعة بدون ألم. وقد يتخذ مصيرك منحىً آخر إذ أن لمواكب المسؤولين وأرتال قوات الإحتلال مزاج بئيس بزج نفسها وسط الحشود المتلاطمة باستفزاز واستهتار لا نظير لهما وغالباً ما تجد نفسك صدفة مغلوباً على أمرك محاطاً برشاشات الحماية النافرة من نوافذ السيارات الفارهة أو من على ظهر "بيكبات" المغاوير، بعضها مصوبٌ نحوك عمداً والبقية يرش فوق رأسك موجات عاتية من أزيز الطلقات تنائراً في الفضاء وجميع أفراد هذه "الزفة" المأساوية شباب غر من شرائح اجتماعية معوزة منظرهم يذگر بأبطال هوليويد "السوبرمانيين" الذين ابندعتهم وسوقتهم إلى الشعوب رموزاً كرامبو وترنتي وغيرهم كثير، ثقافة امتدت لعقود شكلت مثلثاً ملتتهباً أضلاعه المتساوية فقر وجهل أكمله الإحتلال بالسلح فكان مآله المنطقي: الجريمة. أما إذا واجهك رتل دبابات أو همرات وكنت ساهيا ولم تنتبه لتتوقف أو تزيج نفسك عن الطريق فانت ومن حولك كوكتيل دماء تميزه هوية واحدة أنه دم عراقي، تسحقه برعونة عجالات مجرمة شوّهت وجه العراق كمصابٍ بالجذام ميؤس منه، كما يُحتمل أن يتركك طالع سوء وسط كمين نصبه مسلحون لدورية أمريكية أو عراقية فهنا تحل عليك القارعة، ولا منفذ إلا بالصعود عمودياً نحو السماء في جو الصيف العراقي الذي أشبه ما يكون بمشاهد أفلام استيطان الغرب الأمريكي، قوافل تضم شذاذ أفاق من كل حدبٍ وصوب تلفهم غمامة ثقيلة من التراب والغبار والعرق بعد أن حركت الجيوش المحتلة رمال الصحارى العراقية التي لم تطؤها قدم محتل منذ دهور. ثم أن لهذا الدرب تقانين إبليسية فهو يتلوى، يتحول، يتبدل وينغلق بكتل كونكريتية كلفت العراق ملايين الدولارات، تحاصر لك لساعات وأنت تبحث عن منفذ وغالباً ما تضيعك في ممرات تجهلها فقد قُطعت بغداد أوصالاً وسُدت منافذ مناطقها السكنية وقُطعت هي الأخرى أشلاءً، قد هجرها معظم سكانها القدامى وحلّ محلهم مُهجرون أو انتهازيون نازحون، وصار من المتعذر الإنتقال من شارع لآخر إلا مشياً متخططين حواجز من كل الأصناف منها الترابي والكونكريتي والمركوم بجذوع النخل وهايكل سيارات مفخخة أو حتى بقايا كراكيب وقطع أثاث مُستغنى عنها، لذا شاع مؤخراً استخدام الدراجات النارية والعجلات وهي ظاهرة إيجابية تخلصاً من رق السيارات، ولو كنا على درجة ناهضة من الوعي كبعض شعوب العالم ونظراً للحال القائم لرگنا كل السيارات في البيوت ذاك أن الأخرى تمر ببسر متجاوزة الجموع المختنفة تُشيعها العيون بالحسرة ولسان حالها يقول: "نيالكم خلصتو" فهم قد اجتازوا الصراط المستقيم والعراق كله يوم محشر أو تمرين "بروفة" لهذا اليوم قبل أن يحين وقته.

انتهت الإمتحانات والمراقبة التي أحاول تجنبها لأنها تحولني إلى شرطي يتلصص في حركات الطلبة محاولات غش من الآخرين أو باستعمال "البراشم" التي تتراكم على مكتب رئيس القسم بعد انتهاء كل امتحان، انتهى كل هذا كما تمّ تصليح الدفاتر وفرز النتائج وأنا الآن "أتمتع" بعطلتي الصيفية. كان المفروض أن أغادر اليوم إلى فرنسا في منحة دراسية لمدة شهرين ولكني لم أفعل، دائماً أكرر أن أمام الإنسان خياران، هناك المزاج والهوى مقابل الواجب والإلتزام، وفي لحظة الصفاء والصدق مع النفس يعرف الإنسان أين يكون، ولا خير في وجود يفترق، مع تقدم العمر والخبرة، إلى هذه النعمة، نعمة الإشراق والرؤية. أقول بعد أن أمضيت أكثر من شهر في التحضير لهذه المنحة انسحبت منها وأنا سعيدة باختياري، فيما أن أبقى حيث يُحدث القليل الذي أعين به من حولي فرقاً كبيراً في إدامة عجلة حياة مستحيلة أو أن أفرّ بنفسي بعيداً عن حر جهنم الملتهب عرقاً ودم مُصاحبة بشعور بالذنب والتقصير أكثر إيلاًماً من جهنم ولهيبها، ثم هناك مالا يمكنني إخفاؤه من مشاعر الرفض العنيف، رفض للغرب بكل ما أورثنا من دمار للبلاد وللعباد، فهل كان الشاعر الإنكليزي "كبلنك" ذي المنحى الإستعماري مُحقاً في قوله: " الغرب غرب والشرق شرق ولن يلتقيا".

“East is east and West is west. Never the twain shall meet”

لم تعد رؤية جنثٍ مكدسة فوق بعضها مُغطاة بقطعة قماش تقطر دماً في "بيكب مكشوف"، وكأنها جنث أغانم تُنقل من المسلخ إلى محلات القصابين، متوجهة إلى الطب العدلي أو تتناثر أشلاء أجسادٍ في الشوارع وسط ضباب دخاني أسود يسد وجه السماء إلا روتين يومي لما يحدث في بلدي، فهل أصبحت من مدمني الانفجارات والدم والخراب؟ جزئياً أقول نعم فاليوم الذي لا أسمع فيه رشق الرصاص والمفخخات الذي يهز أركان بيتي يبدو ناقصاً غير مألوف. قبل ستة عشر عاماً تركت التدريس لضغوطٍ تعرضت لها بغية دفع عدد من الطلاب الفاشلين، كانت الظروف الدراسية طبيعية، ولم تكن هناك أوضاع استثنائية تؤثر سلباً على الحالة النفسية والعقلية للطلبة كما هو الحال اليوم، ثم عدت إلى الجامعة بعد السنين الطوال وكأني ما ابتعدت كثيراً فالحال في تدهور خطير متواتر ومستوى الطلبة الثقافي والأكاديمي دائرة مغلقة من الفوضى لا تستقطب، حسب نواميس الكون، عدا مثيلاتها من السلبيات إلا ماندر وهم نسبة ضئيلة جداً، و شيوع ظاهرة تهديد الأساتذة بالقتل في حالة رسوب الطالب الذي لا يزيد معدل درجاته السنوي عن 50% وغالباً ما يكون أقل من ذلك تبدأ تحركها عند تقديم جداول السعي السنوي، فإذا جاءت الـ "السعيات" خائبات على خلاف رغبة الطالب المحمل بالمادة الدراسية من سنة ماضية فالتهديد هو الإجتهد الأمثل الذي يستخدمه في ترويع الأستاذ والأساتذة "والحسين أبي عبدالله راح أدميك أو أدميح اليوم". لقد تعرضت كآخرين غيري ممن انقطعوا عن الدوام على إثر ذلك أو ممن تمت تصفيتهم بالفعل لنفس الحجة أو لأسباب أكثر وضاعة والقائمة التي مازالت مفتوحة تذكر مئات من أسماء كوكبة من ألمع العقول في كل الإختصاصات، لكني تابعت مع من تابع غير أبهين آخذين بنظر الإعتبار الواقع الإستثنائي الذي يمر به العراق وينعكس سلباً على مفردات الحياة وعلى مدار ثواني اليوم، فالعيش خوضاً مع الدم والموت والربح لا يترك فسحة لرؤية عاقلة. هنا تأتي مسألة رفع الدرجات حسب توجيهاتٍ عُليا إلى ما لا يقل عن 50/15 مضافاً إليها سماحة أستاذ المادة الدراسية في التعاطف مع من لا يجدون فيما يتلعبهم من ظلام رحمة باختيار أسئلة امتحانية تتناسب مع قابلية الغالبية العظمى منهم. هكذا اجتاز طلابي شرف

الأختبار النهائي، كانوا سعداء بعد الخروج من قاعة الإمتحان بوقت قياسي وبابتسامات عريضة يدعون لي بالخير والسلامة حتى ذلك الذي حلف بالحسين أن يدميني، جاء معتزلاً بأنه كان حينها في حالة غضب، قلت له:  
- لم تترك للغضب أن يغلبك، ألا تخشى الإصابة بداء السكري؟ ثم كيف تحلف بالحسين لفعل تتراجع عنه فيما بعد، وهل يقبل الحسين عليه السلام بالغش والنجاح "بالكوترة"؟، أنت إذا لست من السائرين على درب الحسين، هل سمعت بهذه الأبيات التي تقول:

" لم نزل بيننا وبين الحسين مدنٌ قانية

فإمّا أعدنا قراءة جرح الحسين

فلا بدّ من لغةٍ ثانية"

عندها غض طرفه وانصرف أسفاً، تُرى هل فهم مغزى الكلمات؟ أشك كثيراً فغالبيتهم لا تتجاوز لغتهم العربية مستوى خطاب الشارع العادي كما أن البعض منهم لا يجيد كتابتها ومنهم من لا يعرف أن يكتبها فعلاً، أما كيف وصل إلى مرحلة الدراسة الجامعية فهذا متروك لمخيلة القارىء!

الحلف والوعد والوعيد بالحسين أبي عبدالله "مودة" العصر، صيحات يتراشقها الطلاب وتلتقطها الأذن في المكاتب وعلى طول وعرض ممرات الجامعة التي كانت تُعلق فيها سابقاً لوحات تحمل أسماء الطلبة الأوائل للسنوات السابقة ومن بين الثماني وعشرين اسماً أحصيت "ثمانية عشر" لطالبات كنت أفخر بقراءة اسمائهن والإشارة إليها. أحبُّ أن أذكر أنني لم أسمع اسم المسيح يتكرر حلفاً عند إخواننا النصارى فهم يكتفون بكلمة "صدقي..." إلا عندما يؤخذون بغتة بخبر جلال فيتمتمون "باسم المسيح... باسم العذرة" ناطقين الذال ضاداً.

وبعد فقد صدق من قال: لا أمل سوى التشبث بالأمل، لذا أتوجه إلى الله الذي وضع الأمل في الفطرة داعية راجية:

أسأل الله من الفضل التفاني في العمل

دأبّ النحلة في جمع الرحيق

وهدى الفطرة في سبك العسل

ولكل الخلق أرجوه الأمل.

د. فوز النعيمي